قضية

«الشرق الأوسط الجديد»... من ساحل اليمن!

شكّلت واقعة خان شيخون في الفعل ورد الفعل فاتحة لفصل جديد ينذر بانزلاقات خطيرة عسكرية وسياسية وأمنية في الشرق الأوسط، وتمثل وصلاً لما انقطع في أيلول 2013 حينما ألغى الرئيس الأميركي السابق، باراك أوباما، قرار الحرب على خلفية «كيماوي الغوطة الشرقية» في ريف دمشق في آب من العام نفسه. جردة الحساب التي قدّمها الرئيس دونالد ترامب، في اتصاله الهاتفي مع الملك سلمان عقب يوم من «غزوة الشعيرات»، لم تقتصر على مجرد استحصال فاتورة صواريخ الـ«توماهوك» التسعة والخمسين، بل شملت الإعداد لما هو آتٍ من عمليات عسكرية واسعة تندرج في إطار الصفقة الكبرى التي لا تزال قيد التداول خلف الكواليس بين واشنطن والرياض وأبو ظبي، وصولاً إلى تغيير خرائط في الشرق الأوسط كانت لا تزال رهن أوضاع جيوسياسية مؤاتية

فؤاد إبراهيم

جرى الحديث سابقاً (الأخبار العدد 3128 في 15 آذار) عن المناصفة التي يشترطها ترامب ثمناً لخوض حرب مفتوحة على شعاع محور الممانعة مشتملاً اليمن ابتداءً، ومستوعباً لبنان وسوريا والعراق، وصولاً إلى إيران. في لقاء ترامب مع وليّ وليّ العهد السعودي، محمد بن سلمان، في 14 حزيران الماضي، تم النقاش في خيارات أخرى أبرزها: تمكين السعودية والإمارات في اليمن، وتغيير الوقائع الميدانية في سوريا، مقابل 30% من النفط السعودي والإماراتي. بقي الخلاف حول المدد الزمنية؛ فبينما اقترح ابن سلمان خمس سنوات تحصل فيها الولايات المتحدة على 30% من مداخيل النفط، تمسّك ترامب بخيار الاستثمار الدائم وغير المحدود، بما يشمل حماية العرش السعودي من التهديدات الداخلية والخارجية.

في التحليل، تبعث «ضربة الشعيرات» رسالة إلى الرياض، لكونها المتكفّلة بتسديد فاتورة الهجوم، مفادها أن ترامب يمتلك «الحزم» المطلوب لجهة تنفيذ القرارات العسكرية بأقصى سرعة ممكنة ودون حتى الرجوع إلى الكونغرس. أراد القول بوضوح: أنا جاهز للحرب، فهل أنتم جاهزون لتسديد فاتورتها؟ لم يكن الموقف السعودي الفوري لتهنئة ترامب على الضربة الصاروخية على الشعيرات لمجرد التهنئة، بل ينطوي على إشارة واضحة بأن المملكة جاهزة بالمال لمقابلة جاهزية ترامب في الميدان.

لا يشغل بال السعودية هذه الأيام أكثر من اليمن في معركة الحديدة الفاصلة؛ فالبلد الذي كان يميل إلى «حروب البروكسي»، ولم يتورّط في حرب مباشرة على مدى نصف قرن (منذ حرب اليمن الأولى عام 1962)، صارت الحال مختلفة لديه الآن. فلناحية التدخّل العسكري الأميركي المباشر، نكون أمام معادلة جديدة تبدأ بالحديدة ولا تنتهي بدمشق. في تقديرات الجيش و«اللجان الشعبية» في اليمن، إن اللحظة التي سوف تشارك فيها الولايات المتحدة في العدوان تكون لحظة «الانتصار التاريخي»، وفق قادة ميدانيين، إذ تكون السعودية قد رفعت رمزياً اليدين في الحرب، ما اضطرها إلى الاستعانة بقوى دولية ليست حسنة السمعة بحال في الشرق الأوسط، أي الولايات المتحدة وبعض حلفائها أوروبياً.

ترامب، ببضاعته السياسية الزهيدة، ينساق نحو خيارات متناقضة مع شعاراته الانتخابية؛ فلا هو الذي تمسّك بخيار رفض الدخول في الحرب السورية كما فعل سلفه أوباما ونال منه ذات تغريدة، ولا هو أولى إعادة بناء «أميركا العظيمة» تأسيساً على الحدود المغلقة أمام الأجانب وسياسة النأي بالنفس عن كلفة الانخراط في «الحمايات المكلفة» للحلفاء. في حقيقة الأمر، يتموضع ترامب بطريقة تجعله مجرد «ألعوبة» بيد التجمع العسكري والصناعي في الولايات المتحدة.

في معركة الحديدة، تجري الاستعدادات بوتيرة هادئة، ويدرك الأميركي أن أي انتكاسة عسكرية في اليمن تعني انتكاسة مشروع الحرب الشاملة في المنطقة، ولا سيما أن التعويل في هذا المشروع قائم على أن اليمن هي الخاصرة الضعيفة في المحور المناهض للولايات المتحدة وحلفها الإقليمي، وأن انتصار هذا المحور هنا يمثّل محاولة «فرملة» اندفاعة محور الممانعة بعموم ساحاته، ولا سيما بعد إنجازات الميدانين السوري والعراقي.

لناحية بريطانيا، خاصة أنها شريك حيوي وعضوي في مشروع الحرب الشاملة، فإن القلق يستبد بها استناداً إلى دروس التاريخ، حينما تحطمت أعتى القوى العسكرية على جبال اليمن وتلالها، ولا طاقة لها على تحمّل خسارة في اليمن، حيث لا انتصار مؤكّداً حتى الآن. من وجهة نظر قيادات عسكرية وسياسية في الشمال اليمني، إن الدور البريطاني والإماراتي في اليمن هو الأقذر، لأنه يقوم على فكرة تقسيم البلاد والسيطرة على الجزر والموانئ، ولا يغيّر ذلك من أن العدوان يبقى سعودياً.

وتهمس مصادر خليجية عليمة بأن شيوخ الإمارات أقرب إلى واشنطن من ملوك الرياض، وذلك على قاعدة التماهي مع الأجندة الأميركية، كذلك فإن في المعلومات ثمة مقترحاً أوروبياً تم تمريره عبر قنوات غير رسمية لجهة ما في حركة «أنصار الله» يقوم على: فتح مطار صنعاء مقابل وقف إطلاق الصواريخ على السعودية. فكان الرد: إيقاف الصواريخ يكون مقابل وقف الطلعات الجوية. وفي اجتماع مساعد المبعوث الدولي إلى اليمن، إسماعيل ولد الشيخ، مع قيادات سياسية يمنية في برلين في منتصف آذار الماضي، قال في لحظة انفعال: «لا سلام في اليمن، إنها الحرب وفقط».

وحدها روسيا تراقب بابتهاج إخفاقات خصومها في الميدان اليمني. غياب ممانعة موسكو على صدور القرار الأممي 2216 الخاص باليمن كان يشي بتسهيل مهمة الأطراف الراغبة في الحرب، ولذلك شعرت روسيا بسعادة كبيرة لتورّط السعودية، ولن تتردّد في تمهيد كل السبل من أجل لحاق الولايات المتحدة بحليفتها للسقوط في الوحل اليمني بلا رجعة. للإشارة فحسب، تطبع العملة اليمنية في روسيا، ثم تشحن إلى عدن. تقول مصادر يمنية إن الشحنات لا تصل إلى مستحقيها الفعليين، بل تذهب في آخر المطاف إلى «القاعدة» و«داعش». مرّت سبعة أشهر ولم يتسلّم الموظفون اليمنيون رواتبهم، فيما تصل الأوضاع الانسانية إلى حافة الموت الجماعي نتيجة المجاعة.

هل يريد الروسي زيادة تعقيد الوضع اليمني؟ وهل يريد «استنساخ» النموذج الأفغاني والانتقام ممن أطاح الاتحاد السوفياتي عبر تسهيل مهمة كل الأطراف على المواجهة، ولكي تلد كل معركة معركة أخرى وهكذا دواليك؟

نقلت مجلة «فورين بوليسي»، في 30 آذار الماضي، عن الجنرال جوزيف فوتيل، وهو قائد القيادة المركزية الأميركية، إفادته أمام مجلس الشيوخ، في وقت تناقش فيه الإدارة الأميركية المشاركةَ في عملية عسكرية لـ«التحالف العربي» تشمل الهجوم على ميناء الحديدة وإخراج «أنصار الله» وحلفائهم منه ومن المناطق القريبة. وفوتيل هو اليوم من أبرز صنّاع القرار في إدارة ترامب، وسوف يلعب دوراً محورياً في الحروب المقبلة في المنطقة.

في معركة الحديدة، تصرّ السعودية على ألا تخوضها منفردة، بانتظار الأميركي. فقد تكفّلت الرياض التوافق مع «خرطوم عمر البشير» بتجنيد ستة آلاف مقاتل سوداني تجمّعوا في جزيرة ذقر شمال أرخبيل حنيش، قبالة سواحل ميناء الحديدة، ويراد الزجّ بهم في المعركة إلى جانب مقاتلين آخرين أفارقة. أما في معسكر البريقة، شمال غرب عدن، فيحتشد المقاتلون المرتزقة، وتمتلئ المخازن من شحنات الأسلحة الأميركية. كذلك أنشئ مطار عسكري في جزيرة ميون الواقعة في مضيق باب المندب عبر الإمارات التي تغري سكّان الجزيرة بإخلائها مقابل تعويضات مالية سخيّة تصل إلى مليون درهم.

شبكات الاتصال الإماراتية تعمل في جزيرة سقطرى التي احتلتها الإمارات. وبصورة عامة، ينظر المسؤولون في الشطر الشمالي من اليمن إلى المخطّط الأميركي على أنه

اتفقت الرياض مع البشير على تجنيد 6 آلاف مقاتل سوداني لحرب اليمن (أ ف ب)